المعرّي وفلسفتهُ

(١) مذهب التشوء

ان كان مذهب دارون حديثاً فتنازع البقاء قديم شعر بهِ الناس منذ وجدوا وصرح بهِ حكماؤُهم وشعراؤُهم في الامثال والاشعار كلٌّ على طريقتهِ ومنوالهِ . فمنهم من وصفهُ ولم يفطن اليهِ ومنهم من فطن اليهِ ولم يعممهُ ومنهم من شعر بهِ شعور المتألم منهُ المنكر عليهِ . ولعلَّ اشد شعراء الامم نقمة على تنازع البقاء وذكراً لهُ في نظمهِ ونثرهِ ابو العلاء المعري . ولا عجب في ذلك فان المعري نزل الى معترك هذه الحياة العصيب عزلاً من الاسلحة المنجحة فيهِ . نزل اليهِ يتيماً فقيراً سوداوي المزاج مفرطاً في الحس وكان ارفع خلقاً من ان يُسف الى منافسة امثالهِ الشعراء على ما يتكسبون بهِ . وكان رحيماً رحمة كادت تكون مرضاً وناهيك بمن يشفق على البرغوث أن يُقتَل وعلى النحل ان يشتار عسلهُ . وليس بواحدة من هذه الخلال يحمد المرء غب تنازع البقاء أو يكون ممن يغفلون عن وطأتهِ و ينظرون اليهِ بعين الرضى والارتياح وهو ما هو عنفاً وقسوة واثرة وخداعاً وانتهاكاً في معظم الاحيان لحرمات الاخلاق الفاضلة والمبادئ الرفيعة . فلذلك شعر بهِ المعري شعور المقاتل الاعزل بالهزيمة واوحى الالم والاشفاق الى وجدانهِ قبل تسعة قرون ما اوحاهُ الاطّلاع والاستقصاء والتنقيب الى فكر دارون في الزمن الاخير

ولو كانت اشارة المعري الى تنازع البقاء كلمة بنت لحظة ابتعثها الالم فسطَّرها القلم لما كان في هذه الاشارة ما يجيز لنا قرن اسمهِ بتنازع البقاء ولكان الأحرى بتلك الاشارة ان تُردد في معرض الاستشهاد كغيرها من الخواطر الشعرية . ولكن اشارات المعري في هذا المعنى كانت اشبه بالتدقيق العلمي منها باللمحة الشعرية واقرب الى التأمل الدائم المتسلسل منها الى النظرة العارضة التي لا تبدأ في الخلد حتى تنتهي و ينطوي اثرها . فانك لا تقلب صفحة من اللزوميات او غيرها الا سمعت منها انة او انات يتغير موضوعها ومبناها ولا يختلف مضمونها ومحواها وكلها نعي وتبكيت للعالمين على ظلمهم وتنافرهم ومكر بعضهم ببعض . وكأن الآلام المبرحة التي يعرفها المخذول في كل حرب ويجهلها الظافر قد جسمت هذه الحالة لهُ وغلظتها فاحاط بدقائقها البعيدة ولم تخفَ عنهُ خافية من وجوهها المختلفة بين انواع المخلوقات لحظ التنازع بين الناس على حقيقتهِ وهو اقرب الاشياء الى اذهان الناس لو التفتوا اليهِ

ولكنك على كثرة الشعراء لا تقرأهُ ممثَّلاً في شعر احد كما هو ممثَّل في شعر المعري . فمن قولهِ في ذلك : —

أما لكمو بني الدنيا عقولٌ تصد عن التنافس والتعادي
اذاة من صديق او عدوٍ فبؤساً للاصادق والاعادي

واوضح منهُ في هذا المعنى قولهُ : —

تنازع في الدنيا سواك وما لهُ ولا لك شيءٌ في الحقيقة فيها
ولم تحظَ في ذاك النزاع بطائل فمتفقوها مثل مختلفيها

واوضح من قوليهِ هذين قولهُ : —

تناهبت العيشَ النفوس بغرة فان كنت تستطيع النهاب فناهبِ

وزاد على ذلك فبين ضرورة هذا الخلاف فقال : —

لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل ولم تُقن ارماح وأسيافُ

واحسبهُ استطرد من النظر في اطوار الانسان الى النظر في اطوار المخلوقات كافة فاجمل الحكم عليها في هذا البيت الجامع : —

ولا يُرى حيوانٌ لا يكون لهُ فوق البسيطة اعداءٌ وحسادُ

وفصَّل هذا القانون العام في عدة مواضع من لزومياتهِ فقال : —

يهاجر غابهُ الضرغام كيما ينازع ظبيَ رمل في كناسِ
سجايا كلها غدر وخبث توارثها اناسٌ عن اناسِ

وقال : —

تدري الحمامة حين تهتف بالضحى ان الاجادل لا تطيل جدالها

وقال وفيهِ الماع الى توارث الخوف بين الحيوانات : —

تتبع آثار الرياض حمامة ويعجبها فيما تزاولهُ النقرُ
تهم بنهض ثم تثني برغبة فما شعرت حتى اتيح لها صقرُ
وقد عرفتها امها امس شرهُ وان الردى يقرو المكان الذي تقرو

وهو لا يفرق بين الاقوياء والضعفاء في هذا النزاع بل يشملهم بهِ جميعاً فيقول : —

ظلم الحمامة في الدنيا وان حسبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

ومن كلامهِ ما يصح ان يعد تلميحاً الى غاية هذا النزاع وهي بقاء الاصلح وانتفاع الغالب برجحانهِ على المغلوب كما يؤخذ من قولهِ : —

ولو علمتم بداء الذئب من سغب اذن لسامحتمُ بالشاة للذيبِ

ومثلهُ قولهُ : —

ولولا حاجة بالذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتُنص الغزالُ

ومثلهُ ايضاً : —

وسخط الظباء بما نالها تولد منهُ رضى الحابلِ

واحياناً يتجاوز القول بتنازع البقاء وبقاء الاصلح الى تقرير هذا الرأي الذي قررهُ النشوئيون حديثاً وهو ان لكل حي على الارض سلاحاً خاصاً يتقي بهِ عدوهُ ويكدح بهِ لنفسهِ . وليس أصرح في هذا الرأي من هذا البيت : —

وما جُعلت لاسود العرين اظافيرُ الاَّ ابتغاء الظَّفَرْ

واقل منهُ صراحة في ذلك البيتان : —

اذا كُف صلُّ افعوان فما لهُ سوى بيتهِ يقتات ما عمر التربا

ولو ذهبت عينا هزبر مساور لما راع ضأناً في المراتع او سربا

فاذا راجعت الابيات المتقدمة مع كثير من امثالها التي اكتظَّت بها دواوين المعري امكنك ان تجزم بان الرجل سبق أسبق المتأخرين الى ادراك تنازع البقاء وما يلابسهُ من الافكار . ادركهُ متكرراً جامعاً لا متفرقاً طارئاً . فاذا قيل ان دارون واضع المذهب في عالم العلم ساغ لنا ان نقول : والمعري واضعهُ في عالم الادب والشعر

و يظهر ان فرط الشعور بتنازع البقاء لا ينفك عن فرط الشعور بالمحافظة على الذات وهذا امر طبيعي معقول اذ لا يعرف قيمة الشيء كمن يعرف مقدار التزاحم عليهِ . ولذا كثر كلام المعري في حب الحياة والافتتان بالدنيا كما كثر كلامهُ في التنافس والتباغض فهو يردده في قصائدهِ ولا يبرئ منهُ نفسهُ و يتهم من يظهر خلاف ذلك بالكذب والمراء كما قال في لزومياتهِ : —

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشقها

ولا تظهرنَّ الزهد فيها فكلنا شهيد بان القلب يضمر عشقها

وكما قال ايضاً

ومن العجائب ان كلاًّ راغبٌ في ام دفر وهو من عيَّابها

الى كثير غير ذلك . وهو لا يكتفي هنا ايضاً بالحكم على الانسان فحسبُ بل يشمل بحكمهِ الاحياء جميعاً فيقول : —

أرى حيوان الارض يرهب حتفهُ ويفزعهُ رعدٌ ويطمعهُ برْقُ

ويقول كذلك: —

تسريحُ كفك برغوثاً ظفرتَ بهِ أبرُّ من درهم تعطيهِ محتاجا

كلاهما يتوقى والحياة لهُ حبيبة ويروم العيش مهتاجا

وتعميم المعري الحكم على الانسان والحيوان معاً كما نسب الى الانسان خلقاً من الاخلاق طريقة ذهنية عجيبة لا نستطيع تأويلها الاَّ اذا قلنا بان الرجل كان يعتقد ان الانسان والحيوان من عنصر واحد وانهُ كان في صميم نفسهِ نشوئيًّا بالغريزة وان لم يعلم بذلك فكرهُ علماً يصح الاستدلال بهِ

(٢) مذهب التشاؤم

على ان هذا الارتباط بين الشعور بتنازع البقاء والشعور بحب البقاء يفسر لنا سر فلسفة المغالين في التشاؤم المبالغين في النقمة على الوجود فليسوا هم باشد الناس كرهاً للحياة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ولكنهم اشد الناس حبًّا لها وضنًّا بها . وهم لا يسبُّون الحياة سبَّ المحتقر المزدري بل سب الرجلِ المرأةَ التي يتولَّه بها و يعبدها ثم لا يحظى بطائل منها ولا يجد عندها صدى غرامهِ بها

وقد انتهى بالمعري النظر في هذا المعترك الضروس كما انتهى بعدهُ بامام المتشائمين ارثر شوبنهور فكلاهما يقول: — ما دامت الدنيا كفاحاً لا راحة فيها وما دام الغالب اليوم يغلب غداً والموت يهلك الغالب والمغلوب على السواء فالحياة وقر فادح والعيش عبث والعدم افضل من الوجود» . الى آخر ما اتفق عليهِ مزاجهما من ايثار العزلة والاستئناس بالحيوان والقول بارادة الحياة مع التنفير منها واحتقار النساء وتحريم الزواج . ومن هنا يظهر خطأُ الاثنين بل خطأُ المتشائمين جميعاً في التعقيب على تنازع البقاء . فلا شك انهُ لو وقعت هذه الخواطر لاناس ذوي مزاج مختلف عن مزاجهم لما استخلصوا منها هذه النتيجة ولرأوا ان الاولى بهم ان يقولوا: ما دامت الدنيا غلاباً فكن انت الغالب وما دام الموت قضاءً لا مفرَّ منهُ فلا يهمك امرهُ وليهمك ان تنال من الحياة اقصى ما يُنال فلأَن يدركك الموت سيداً خيرٌ من ان يدركك مسوداً» . وليس العجيب ان يتفاوت حكم الناس في المسألة الواحدة من النقيض الى النقيض ولكن العجيب ان نعلم بما للدنيا من الوان لاعداد لها و بما للناس من حالات واميال لا يحصرها الفكر ثم نطالبهم بالاتفاق على الكبائر والصغائر او نقدح مثلاً في فلسفة المتشائمين لانهم يرون الحياة من جانبها المظلم ونحن لا نراها الاَّ من الجانب الابيض المنير . ومن الخطإ

ان يرفض النقّاد فلسفة التشاؤم جملة لبعد اصحابها عن حياة الأعمال الدنيوية ولا يذكروا ان هذه الدنيا غاصة بالنقائص وان هناك جبلات اسرع الى استكناه هذه النقائص من سواها وليست هي جبلات اهل الاعمال لان هؤلاء مصروفون باعمالهم عن مشاهدة ما يقع حولهم — ومن اين للمقاتل المنهمك في المعركة ان يحيط بما يجري في غضونها ؟

وانما قلنا اتفق مزاج المعري وشوبنهور ولم نقل اتفق عقلهما لاننا نعتقد ان المتشائمين كلهم من مزاج واحد وهذا علة اتفاقهم في الاقيسة التي يذهب فيها الناس مذاهب شتى وادراكهم المسائل على وتيرة واحدة وان كانت مما تتشعب فيهِ الافكار . فقد اتفق المعري وشوبنهور على كل رأي اشتركا في الاقرار بهِ ولو لم يكن من اصول فلسفة التشاؤم . خذ مثلاً ادراكهما للزمان فان المعري يتصورهُ كأنهُ نفس طائر في اثر نفس وكانهُ اجزاء متفرقة يجمعها كلٌّ واحد فبراقبهُ مراقبة من لا يسهو عنهُ و يتبع كل نفس يمر بحسرة المشيع الآسف ومن هذا النحو قولهُ : —

نَفَس بعد مثلهِ يتقضى فتمر الدهور والاحيانُ

وقولهُ

لهفي على ليلة وافت تألّفت منها الشهورُ

وقولهُ

اما المكان فثابت لا ينطوي لكن زمانك ذاهب لا يثبتُ

ويلحق بهِ قولهُ

قدم الزمان وعمرهُ ان قسا فلديهِ اعمار النسور قصارُ

وكذلك يقول شوبنهور مع الفرق بين الاسلوبين الشعري والفلسفي : « الزمن هو ذلك الذي يفتأ يجعل الاشياء لا شيء في ايدينا فتفقد بذلك قيمتها » و يقول « نحن نسلب يوماً كل مغرب شمس » و يقول : « ان وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما ينى ابداً متسرباً طائراً فلا بدَّ لهُ اي لوجودنا من ان يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا امل في الوصول الى الراحة التي ننشدها . مثلنا في ذلك مثل المنحدر من جبل عالٍ فهو يسقط اذا حاول الوقوف »

ولا يشعر بالزمن هذا الشعور الاَّ الذي يحصي كل لحظة تمر بهِ سآمة والماً كالسائر المتعب الذي يلتفت بعد كل خطوة يخطوها الى المسافة التي خلّفها وراءهُ والمسافة التي لا تزال امامهُ . ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن الاَّ لمن يرى ان الحياة إنْ هي الاَّ زمن يمر لا تكوين يستتم قواهُ وجزءٌ من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منهُ . ولسنا نقول ان الزمن

ثابت والمتشائمون يتصورونهُ غير ذلك وانما نقول ان تصورهم هذا خاص بمزاجهم . فكم من الناس حتى الفلاسفة والمفكرين والعلماء لا يشعرون بالوقت منعزلاً عن الحياة لانهم يقيسون الحياة بحركاتهم التي هم مستغرقون فيها لا بحركات الافلاك والسيارات . وكم من الناس في قرار وجدانهم لا يتصورون للوقت وجوداً فضلاً عن تصورهم ان الوجود مستقر عليهِ

وهما اي المعري وشو بنهور سيان في الرأفة بالحيوان واستطلاع اطوارهِ وعاداتهِ . وقد رأيت كيف كان المعري يستعرض اخلاق الانسان في طبائع الحيوان فانظر ماذا يقول شو بنهور . يقول : « اي لذة تداخلنا عند ما نرى حيواناً مطلقاً يدبر شؤنهُ بنفسهِ غير معترض ولا مسوق . تراهُ إما يتلمس طعامهُ او يتعهد صغارهُ او يخالط الحيوانات من جنسهِ الى نحو ذلك . ان هذا لهو الذي ينبغي ان يكون وهو الذي لا يمكن ان يكون سواهُ . فان كان ذلك الحيوان طائراً متعت نفسي بالنظر اليهِ برهة من الزمن . لا بل فليكن فأراً مائياً او ضفدعاً فذلك لا ينقص من سروري بالنظر اليهِ . ويعظم سروري بهِ ان كان قنفذاً او عظاة او إيلا او غزالاً . وما كان التأمل في احوال الحيوانات ليسرنا لولا اننا نأنس فيها حياتنا مصغرة بسيطة »

ولم يعدُ شو بنهور الصواب في هذا التعليل الاَّ اننا لا نجد الناس كلهم يسرون بالتأمل في احوال الحيوانات كما يسر بذلك المتشائمون . ولا نظن هذا السرور آتياً الاَّ من فرط احساسهم بالحياة فهم يعطفون على كل حي ويبحثون عن مظاهر الحياة في جميع طبقاتها . وسيطول بنا الشرح لو تمادينا في المقارنة بين المعري وشو بنهور على هذا النمط فانما المقارنة بينهما بمثابة تحليل لمزاج واحد . ولكن لعل اعجب ما اتفقا عليهِ وفاؤهما لوالديهما وفاء لم نعهدهُ في الفلاسفة الذين يغتبطون بالحياة ولا يشكون غصصها . فشو بنهور اهدى كتابهُ (الدنيا كارادة وفكرة) الى والدهِ واثنى عليهِ اطيب الثناء في كلمة الاهداء . والمعري رثى اباهُ ابلغ رثاء وهو القائل

على الولد يجني والد ولو انهم ملوك على امصارهم خطباء

فما اعجب هذا الوفاء ممن يعد الولادة جناية من الآباء على الابناء !

عباس محمود العقاد